القصة وأنا
أو
قصتي انا...

بقلم الدكتور
يوسف ادريس

فجأة ، وذات يوم من أيام ديسمبر الماضي . وعام ٧٢ يلهث مقتربا من النهاية ، أكتشفت حلا لـذلك الشيء الذي قضيت عمري ، ككاتب ، أبحث عنه دون ان أدري . فجأة ، صدق المثل الذي وجـدته موضوعا تحت زجاج مكتب عالم كبير من علماء الطبيعة عنـدنا ، حين دخلت معمله لاول ولآخر مرة في حياتي . كان مكتوبا بالانكليزية، ولم أفهم كل مراميه بادىء الامر ، بل الاصدق انه بدا لي ، لاول وهلة ، وكأنه لعب بالكلمات . كان المثل يقول :

« قد تجد ما تبحث عنه ، في ما لا تبحث عنه ، وقد تجد ما لاتبحث عنه ، فيما تبحث عنه » .

لصق المثل بذاكرتي تهضمه وتتأمله ، حتى تستخرج في النهاية منـه العبرة . والعبرة التي خرجت بها ان الارادة ، وان كانتشيئا مهما لعثورك على ما تريد ، ليست كل شيء ، بل ان الصدف تلعب أحيانا أدوارا أقوى من أدوار الارادة .

وأنا منذ أن بدأت احاول كتابة القصـة القصيرة ، في أواخر دراستي الطبية ، قرب بـداية الخمسينات ، وأنا قد بدأت أحس اني اطرق باب ذلك العالم ، المجهول لنا تماما ، في ذلك الحين ، عالم الفن ، وانا دائب البحث بيني وبين نفسي معظم الاحيان ، ومع فنانين مشاهير أظن لديهم الجواب ، وصعاليك مثلي بالجراة كلها يلقون بمـا يتراءى لهم من اجابات ، ويعجبـون باجاباتهم تلك ، وكأنهـا حكمة الكـون لاكتها أفواههم بنفس البساطة والحماس اللذين كانت تلوك بهـا سندويتشات الفول والطعمية : لماذا يكون الفن فنا ؟ وكيف يؤثر ؟ ولماذا يولد هذا موهوبا ، وذاك بلا موهبة ؟ أم هل نحن كلنا فنانون وانمـا الاختلاف في الدرجـات ؟ عشرات وعشرات من الهواتف والخوالج ، تأتي وتـذهب ، أسائل بها نفسي ، وأنا عارف أن الاجابة مستحيلة ، وان سر كل تلك المعامع لن ينكشف للبشرية قبل عدة أجيال . فهو سر يكاد يعادل سر الحياة نفسها . أسئلـة تراودني كنـوع من العبث المترف ، فلم أكن في حاجة ماسة أو ملحة للاجابة عليها. كنت أكتب ، وظللت أكتب ، تأتيني الكتابة لا اعرف كيف، وتعجب الناس لا اعرف لم ، وأصبح بسرعـة لا اتوقعها كاتبا معروفا ، عليه أن يفعل مثل الكتاب ، فيقرأ ليعرف الادب منذ بدأ ، ويلم بالنظريات في النقـد ، وبانتاج من سبقوه ومعاصريه، وعليه ايضا انيضع كالكتابالمعروفين، ويجد ، اجابات خاصة ، غليظة دائما ، لكل أسئلة يطرحها عليه صحفي في حديث لمجلة ، أو حتى ناقـد متخصص لينشرها في مجلة متخصصة . وكان عليّ وأنا أجتهـد ان لا اكرر نفسي ، وان تجيء اجاباتي متمشية مع التطور العام ، في فهمي للحياة ، وادراكي للواقع .

في أحيان كثيرة ، في تلك الاوقـات التي نكشف لانفسنا بأنفسنا أقنعتنـا ، ونرى بالضبط ماذا نفعل ، ومن نحن ، كنت أقول لنفسي : لماذا الاصرار على الادعاء ؟ لماذا لا تقول للناس ، ببساطـة ، انك لا تعرف كنه هذا العمل الذي تقوم به ؟ قد يدهشهم هذا ، وقد يأخذونه على انه نوع من « التفنن » اذ قد لا يستطيع أناس كثيرون أن يتصوروا ان مهندسا معروفـا لا يعرف في الحقيقة ما هي الهندسة . انها حكاية لا يمكن ان تقبل التصديق . اذ كيف تتفق براعته التي يزاول بها الهندسة مع جهله التام بماهية الهندسة وكنهها ؟ وهكذا كنت أعيد دائمـا اسدال الاقنعة ، وأوهم نفسي ان الاجابات التي أردّ بها على أسئلة السائلين في الندوات ، أو كتاب الاحاديث في الصحف ، هي فعلا مفهوماتي الحقيقية عن القصة والمسرح والفن ، بشكل عام .

ولقد ظل هذا يحدث الى حوالي عام ١٩٥٨ ، حين سئلت ايضا ، ربما للمرة الالف : ما هي في رأيك القصة ؟ وكان عليّ أن أكتب الاجابة في صفحة . وهنا ، حين جلست لاول مرة لاكتب الاجابة ، وجدت اني فعلا استطعت أن أعثر على تعريف يكاد يعادل الكشف الحقيقي ، بل اكتشفت ما هو اكثر . ان الكتابة ، تلك التي ظللت ، الى ذلك الوقت ، أستعملها وسيلة للتعبير عن هواتفي الخفية ، وشرارات أفكاري ، كي تحيل الهواتف الى أحاسيس ، وحياة ، لها قوانينها المعقولة ، وبها تتحول شرارة الفكر الى ضوء حي دائم متجسد ، اكتشفت انني بالكتابة أستطيع ليس فقط ان اعبر عن نفسي ، وانما أيضا استطيع ان أفهم بها ما يغمض عليّ ، وما يقف عقلي عاجزا أمامه . واننا اذا شبهنا وظيفة الكتابة الاولى « التعبير » بمسائل الرياضة التي يحلها الانسان شفويا ، وعلى البديهة ، فتلك الوظيفة الجديدة التي اكتشفتها آنذاك تشبه المسائل العويصة التي لا يمكن ان تحل ، الا اذا جلست تكتبها خطوة تليها خطوة ، ونتيجة تصل بها الى نتيجة ، كي ، في النهاية ، وبعد عمليات معقدة ، تحريرية ، تصل بها الى الحل ، حل مستحيل أن تصل اليه بالبديهة . انها اذن ليست وظيفة ثانية للكتابة ، ولكنها نوع آخر ، اعمق ، نوع لا بد انه اقرب الى ماهية الكتابة فعلا . فلقد بدأ الانسان اعمال عقله ، واستعماله ، لادراك الاشياء الفورية ، ثم حين بدأ يصادف اشياء اكثر تعقيدا ، تحتاج لاختزان معلومات ، واختزال نتائج ، وتجميع مبعثرات ، بدأ يحتاج الى وسيلة تتيح له كل هذا ، وكان أن ظل يحاول ويحاول ، حتى اكتشف المعادل المكتوب للاشياء المجردة والمحسوسة ، أي اكتشف الكتابة وبها ، بهذه الوسيلة ، استطاع ان يخلق من بشريته البدائية ، تلك البشرية التي مضت ترقى وترقى ، حتى وصلت الى مستواها الآن .

أقول ، في ذلك العام ، ١٩٥٨ ، وفي صفحة ، وأنا أتأمل « الكتابة » تأملا « مكتوبا » لاول مرة ، وأدرك بعد كل محاولة ، انني لم أصل الى حل ، أو ما يشبه الحل ، فأمزق الصفحة ، وأعيد الحل ، وصلت في النهاية الى ان القصة لم يبتكرها الوجدان البشري عبثا ، ولا أعمل الانسان فيها عقله طوال تلك العصور عبثا . وأيضا ليس عبثا أيضا ذلك الاهتمام العظيم الذي نوليه للقصة ، مذ نكون اطفالا شبه رضّع ، الى ان نصل الى أرذل العمر . كون القصة عملا مسليا ، مثل كون اللوحة جميلة الالوان ، مثل كون المسرحية بارعة المناظر والاضاءات . الجمال في القصة لا يمكن ان يكون وحده السبب في هذا الرباط الحيوي بيننا وبينها . كونها عامرة بالمفاجآت ، كونك تتتبعها لتعرف ماذا تلي هذا الحدث ، أو ماذا فعل البطل بعد ذاك ، هذه كلها مواصفات ، مثلها مثل مواصفات البيت أو الثوب ، الشبابيك والشرفات ، والادوار والسلالم ، والتفصيلة والخامة .. الخ .. كل هذا شيء ، ولكن السؤال في النهاية يبقى : ان البيوت ليست مهدا لنا ، لانه أولا المكان الذي يؤوينا ، مسكننا . والثوب حيوي لنا ، لانه رداؤنا الذي يحمي أجسادنا ، ويبقي علينا الحرارة والحياة . القصة ... لماذا هي في أهمية البيت والثوب ، وأحيانا الطعام ؟ لماذا ترتبط بنا ونرتبط بها منذ ان نعي أطفالا ، الى ان نفقد الوعي بنهاية الحياة ؟ ما هي الفائدة الحيوية للقصة لنا نحن البشر ؟

لن أطيل . فباختصار شديد ، اكتشفت لنفسي ، ايامها ، ان أهمية القصة سببها انها « بعد » من « أبعاد » الاشياء والكائنات الاساسية . وأنت لا تستطيع ان تحيا في العالم الا وقد أدركت عنه معارف أساسية ، لا يمكنك الحياة في الدنيا الا بواسطتها . البعد وسيلة لمعرفة بصرية للكون ولكل ما فيه . السمع وسيلة للمعرفة الصوتية . حاسة اللمس وسيلة للمعرفة الحسية . اللسان للمعرفة التذوقية . ونحن قد أدركنا هذه المعارف وأنواعها ووسائلها ببساطة ، لان لكل منها عضوا ، لو فقدناه فقدنا « بعدا » اساسيا ، من ابعاد وجودنا نحن ، ووجود من حولنا وما حولنا . ولكن المعارف ، او «الابعاد» ، ما لبثت ، بتعقد العقل البشري ، وتضخم دوره ، ان اضيفت اليها ابعاد او معارف ، ليس لها أعضاء محددة ندركها ، فادراكها وظيفة من وظائف العقل كله أو بعضه . وهكذا ، بعد آلاف السنين ، وصل الانسان الى تحديد الابعاد الاساسية لكل الموجودات ، وأصبح لكي شيء بعد حجمي ، وبعد وزني أو كتلي ، وبعد مسافي . ثم جاء اينشتين ، ليكتشف بعدا ثالثا للشيء ، اي البعد الزمني . فحجم الشيء وكتلته ليسا شيئين خالدين سرمديين ، انما هما ثابتان لحظة القياس . بل نستطيع ان نقول ايضا ، انه اكتشف البعد النسبي للاشياء ، فنحن دائما نقيس الحجم ، بالنسبة الى حجم ثابت « السنتيمتر المكعب مثلا » ، والكتلة كذلك ، ولكن هذه المعايير التي ننسب اليها الحجم والوزن ايضا نسبية ، تختلف باختلاف وضع الشيء من الشيء الاكبر ، ووضع الشيئين معا من غيرهما من الاشياء .

المهم . وصلت البشرية الى تحديد واف لأبعاد الاشياء ، بالحجم (١) ، والكتلة (٢) ، والمسافة (٣) ، والزمن (٤) . لا يمكن ان ندرك كنه اي شيء ، من أصغره الى اعظمه ، الا بادراك هذه الابعاد الاربعة ، بحيث ان غياب « بعد » منها لا ينقص معرفتنا بالشيء فقط ، وانما يلغي الشيء كله من الوجود . فلا شيء في الكون ، مهما صغر ، ليس له كتلة ، ولا شيء يمكن ان يوجد ، دون ان يكون له حجم .. وهكذا ..

وهكذا ايضا ، في تلك الصفحة التي كتبتها عام ١٩٥٨ ، وجدتني أعزو أهمية القصة ، وحيويتها ، الى حتمية ان تكون بعدا « خامسا » (٥) للاشياء والكائنات ، فالاشياء اذا وجدت بابعادها الاربعة تلك ، لظل كل شيء على ما هو عليه ، ولظل كيلوغرام الحديد ، الذي وجد منذ مائة مليون عام ،

هو نفس كيلوغرام الحديد ، اذا وجدناه اليوم ، بلا تغيير او زيادة او نقصان . فهل هذا هو الحادث ؟ الواقع اننا لا يمكن ان نجده اليوم هكذا أبدا . سنجده قد تغير ، كمّا وكيفا ، وتحوّل وتفاعل مع غيره من العناصر والغازات ، وتكونت من التفاعلات مركبات ومخلوطات . وربما لن نجده حديدا أبدا . ربما سنجده اليوم طلاء أحمر ، فوق سور كوبري ، أو مفتتا الى ملايين وملايين من هيموغلوبين ، كرات دم حمراء في ملايين الكائنات والبشر . وهكذا لا شيء في كل ما يقع عليه بصرك الآن ، وايا كانت أبعاده الاربعة المعروفة ، الا وله بعد خامس ، واجب ، هو قصة ذلك الشيء او تاريخه او تاريخ حياته . قصة خاصة به وحده . فقصة التغيرات التي حدثت لهذه الورقة التي تنظر اليها ، مختلفة تماما عن قصة الورقة التي تليها او تسبقها ، أختلاف قصتك أنت عن قصة اخيك ، وكلاكما من أب واحد ، وأم واحدة .

وهكذا ، ومن هنا ، افترق العلم عن الفن . فالابعاد الاخرى أبعاد علمية ، باستطاعة أي انسان ان يقيسها بدقة ، ولا يختلف قياسه عن قياس أي انسان آخر . أما البعد الخامس ، قصة الشيء ، فهو ذلك البعد المجهول ، الذي لا يوجد له مقياس واحد يدخله في زمرة العلم ، وانما هو يعرف او يقاس بمقياس ذاتي محض . ان المنضدة التي امامك لم توجد هكذا كمنضدة . كانت بذرة شجرة ، مرّت في مصنع ، وسافرت بلادا ، وعدّت بحورا ، وجاءت لنجار ، ذي مواصفات خاصة تميزه عن غيره من النجارين ، صنعها ، وباعها لبائع ، واستعملت في منزل ما ، ثم أفلس الصاحب ، وكان مزاد ، وكانت قصة اخرى ، وأخيرا ها هي أمامك . قد تكون هذه قصة المنضدة ، وقد تكون قصتها ابسط او اكثر تعقيدا ، قصة مرعبة او مضحكة ، عادية او مستحيلة التصديق . ولكن الشيء المؤكد انها ذات قصة واحدة ، ممكن ان يواتيك الحدس والحظ فتخمنها من اول وهلة ، وممكن ان تظل الاعوام تخمن ، ولا تصل اليها .

ومثل المنضدة ــ رغم بساطته ــ مثله مثل كل الاشياء التي نراها او نستعملها لم يكن هدف القصة الا فيما ندر . فالبعد القصصي بعد طموح ، وربما لهذا اختص الانسان به أكثر الاشياء طموحا : الانسان نفسه . واذا كان لكل منضدة ، رغم احتمال التشابه الكبير بين اصل المناضد كلها ، وطرق صنعها ، قصة ، فما بالك بالانسان الذي لا يتشابه منه في الجنس كله أثنان . اننا اذا حاولنا ، بهذه الطريقة ، أن نخمن القصة الخاصة لكل انسان ، بل حتى قصة اللحظة الواحدة من حياة اي انسان ، لوجدنا امامنا ملايين الملايين من القصص ، ولما شكلت القصة هنا بعدا ما . فالبعد هو الشيء الذي يشبه القانون ، هو الذي يقسم المواد الى غازات وسوائل ، او الى عناصر ومركبات ، او الى مواد موصلة للحرارة ومواد عازلة ، هو الذي في الحقيقة يجمع المفردات غير المحدودة في أنماط ، ويلخص ملايين الملايين من الموجودات في حالات .

وهذا هو القصّاص في رأيي . هو صانع قانون القصة للاشياء . هو الذي بفراسته ، وبقدرته الخاصة ، يستطيع النفاذ الى حقيقة ما مضى ، وكنه ما هو حاضر ، ويلخص قصة المرأة المتزوجة في الارياف ، من طبيب ــ بحكم عمله ، وبحكم انتمائها ــ من ابناء المدينة ، في قصة مدام بوفاري . انها ليست قصة جيدة وحسب . انها قانون . قانون وجد ليضيف للنظرة البشرية بعدا آخر . أن قصة الخادمة التي تحمل صينية البطاطس ، وتريد مشاركة الاطفال اللعب بالكرة ، ولكن تذكرها لمهام الشغل ، يجعلها تنسى الكرة والطفولة كلها ، وتسرع لسيدتها ، قانون . قانون الاطفال الخدم أو خدمة الاطفال . ان قصة سائق العربة الذي مات ابنه ، وحاول ان يحادث زبائنه المحترمين عبثا ، ولم يجد بدا ، في النهاية ، من محادثة جواد ، عن محاسن ابنه الذي نفق ، هي قانون ذلك النوع من الحزن ، ذلك النوع من الناس ولا بد .

القصة اذن هي البعد الخامس للناس والاشياء .

والقصاص هو مكتشف ذلك البعد ، من بين مئات الابعاد والنماذج الخاصة .

والمشكلة دائما أن هناك بعدا قصصيا واحدا ، لكل شيء وشخص ، مثلما له وزن واحد ، وبعد واحد .

واكتشاف البعد الحقيقي الواحد للكائن ، او الشيء ، هو شيء خطير ، لانه يعادل اكتشاف قانونه القصصي ، قانون وجوده .

ولهذا ، فموهبة القصصي الحدسية ، في اكتشاف هذا البعد ، موهبة نادرة جدا ، تكاد تكون مستحيلة الوجود .

ولهذا ، فوجود القصّاص شيء خارق للعادة ، خارج عن حدود المعروف والتقليد . وعلى هذا الاساس لا بد ان يعامل .

أقول . حاولت كتابة هذا عام ١٩٥٨ . ولكني لم أكتبه ، ولم ينشر بشكل ظاهر . فالمشكلة ظلت تحيرني .

وحتى لو استطعت العثور عليه ، فهل هي قصتي أنا ، قصة القصّاص ؟ هل أكتب القصة لتطبق هذا القانون وتبرزه ؟

أقول جادا ، حتى لا ابعث اليأس في قلب احد ، اني حاولت تماما أن تجيء القصص والاعمال الفنية الاخرى ، مثلما يقضي قانون الوجود الخامس لنا .

لا أقول ، رحت أختلق القصص التي تحقق النظرية . كنت ألقي بنظرة الى القصة في خاطري ، وبنظرة الى القانون ، فاذا مرّت كان بها ، والا ...

والا .. فالقصة أهم من أي قانون وأجدى .

فمن يدري ، ربما نكتشف لها قوانين اخرى ، وعوالم لم نكن نتصور لها ان تكون !

(القاهرة) **يوسف ادريس**